ويسألونك عن الحصار...

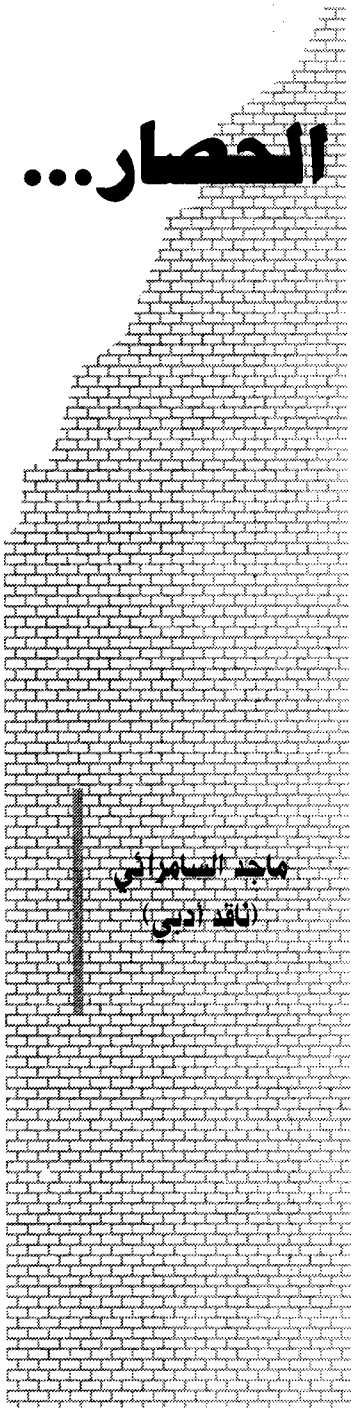

ماجد السامرائي
(ناقد أدبي)

ـ ١ ـ

أتساءل، وأنا أشاهد مَنْ هم بقربي، أو على مسافة في الحياة مني يكتبون القصصَ والقصائدَ والمقالات، ويحبّون، ويعشقون، ويريدون لهذا الذي يكتبونه أن يكون مختلفاً، كما يريدون لكلماتهم الرافضة أن تطاول الزمن ـ هذا الذي يبدو لهم مميتاً وضيّقاً ـ ... أتساءل وأنا أرى هذه الحالات كلّها يحفّ بها الموتُ ويهدّدها: هل فينا، نحن، من الحياة ما يتفوّق على واقع الموت، الذي أصبحَ يحدّ حياتَنا من جهاتها أجمع؟

فنحن الذين اخترنا البقاء على هذه الأرض لنلامس نبضَ حياة الوطن في كل لحظة.. نحتضن الأرض كلما جاءها صاروخٌ معادٍ، أو أفرغتْ عليها طائرةٌ حمولةَ الموت.. نحتضنها خوفَ أن تتصدع، أو تَفْزع فيها أرواحُ مَنِ احتضنتْ.

بالأمس، حين جاءتنا الطائراتُ والصواريخُ مثلَ فلول طيورٍ مذعورة في ليلٍ معتم، خفنا على أشياء كثيرة: خفنا على تلك «الأساطير الرافدينية» التي أعاد إليها السيَّابُ الحياةَ في ذاكرة الناس.. خفنا عليها من أن تلتهمها هذه النارُ الهمجية... خفنا على «ملحمة الحرية» التي جعلها فنّانٌ مثل جواد سليم ملحمةَ عصرنا وجيلنا... خفنا على كثير من معالم ذكرياتنا الأثيرة أن تنالها «الهدايا الأمريكيةُ» التي كانت تأتينا: عمياءَ مثلَ ليلٍ، سوداءَ الروح والقلب... وخفنا على الناس، أولئك البسطاء الطيِّبين، الذين لا تملك إلاّ أن تحبّهم لأنهم كانوا، إرادةً ومعنوياتٍ، أقوى وأصلبَ مِنْ كلّ ما وقع على رؤوسهم من وابل الموت... وكانوا أكثر تماسكاً وثباتاً من بيوتهم التي انهار بعضُها على ساكنيه من جرّاء القصف.

ـ ٢ ـ

هل أكتب عن معاناتي الشخصية، فرداً وأُسرةً؟ أم أن عليَّ أن أكتب عن معاناة شعبٍ أنتمي إليه ـ وهو يتعرض لإبادةٍ جماعيةٍ بأعنف سلاح من أسلحة الدمار الشامل: الحصار؟

إنني أريد أن أصرخ، وأجد الآداب، بتاريخها القوميّ العريق، تفتح الفضاءَ لصرختي التي أريدها أن تبلغ المستقبل في ما تحمل مِنْ ألمٍ ووجعٍ ومعاناة. ذلك لأنّ المستقبل هو ما أُراهن عليه: فالتاريخ سيبدأ منه، يومَ ينتهي النفطُ، مصدرُ الصراع، وتعود الأرضُ العربية إلى براءتها الأُولى، ويرجع «البدوُ» إلى صحاريهم وجِمالهم نادمين على ما فعلتْ أيديهم وألسنتُهم وأموالُهم، فلا يجدون مَنْ يعنيه أمرُهم، أو يَهمُّه أمرُ خروجهم من التاريخ!

ليس هذا حلماً أسود، بل هو الواقع الذي سيكون. عندها سيتحسس الجيلُ المقبلُ مواطنَ العار وشماً في جسدِ شعوبٍ وقبائل جُعلتْ في حالة استتباعٍ للغرب الإمبرياليّ، فأطلق اليدَ في حاضرها وأموالها.

ولكنْ ـ وهو اعتراض يأتيني من هذه «الأفواه الجائعة» التي تملأ فضاءات المدن كلها ـ مِنْ أين لنا الصبرُ على حالةٍ نعيشها وقد تجاوزتْ كلَّ ما يمكن أن يكون للإنسان من صبرٍ في مثل هذا الحاضر المأساويّ؟ فماذا أكتب؟ وعمَّ أكتب؟

هل أكتب عن الثقافة التي أصبح الحصارُ عليها جزءاً من الحصار المفروض على الإنسان؟ فلا كتابٌ يصلنا ولا مجلةٌ، ولا أيُّ مطبوع. وحتى القليل القليل الذي كان يأتينا بالبريد نجد اليوم ألفَ يدٍ ويدٍ تصادره، أو تمزّقه، لتحُول بيننا وبينه كي لا نتعرف، من خلاله، إلى أيّ شيء مما يدور في عالمٍ يتم عزلُنا عنه بالعمل المنظّم.

أم أكتب عن هذه العزلة المفروضة علينا، بل عن العزل التاريخيّ

الإنساني الذي يساهم فيه «الأشقّاء» قبل الأعداء؟

هل أكتب عن إنسانٍ لا يجد في بيته ما يُقيته، ولا يجد لديه ما يبيعه ليقتات بثمنه... ومع ذلك لا يرتضي لرأسه انحناءً، بل ينظر إلى مصيره العظيم من غير يأس، وفي مخيلته غيرُ صورةٍ عن طريق يريد لذاته أن تفترعها؟

أم أكتب عن هذه الوجوه الشاحبة التي ألتقيها كلّ يوم، وفي جميع ساعات اليوم، أنّى اتجهتُ وإلى أين توجهتُ، وأجد فيها وثيقةَ الإدانة الكبرى للإمبريالية.. يَحملها ويُعلنها شعبٌ يتعرض للإبادة الجماعية؟

ـ ٣ ـ

إنّنا، نحن الكتّابَ والشعراءَ والقصّاصين، حين نعبِّرُ عن هذا الواقع، أو نحاولُ حصرَهُ في كلمات، نجد هذه الكلمات مكتزة المعنى، لأنها تعبّر عن حالةٍ تاريخيةٍ أكبر من كل ما مرّتْ به الإنسانية من عذابٍ شامل. فهذا العذاب الذي يعيش معنا، ويقتات من لحمنا، ويفترس كلّ شيءٍ فينا: من الجسدِ إلى العقل، ومن اليدِ والقدم إلى الروح، كيف لا تأتي كلماتُنا مكتنزةً به، مليئةً، إلى حدّ الانفجار، بأصوات ما يَحملُه من صراخٍ يُطْلقه واقعُ حياتنا اليومية ونحن نتعرّض للجوع، والفاقةِ، والعوز، وحرمانِ حياتنا من أبسط حقوقها الإنسانية؟

إنّ جوعنا، نحن العراقيين، إنسانٌ: فصانِعُهُ إنسانٌ، وفارضُه إنسانٌ، والمساعدُ على «تحقيق المفروض» هو الآخر إنسانٌ. ومع ذلك لا نجد غيرَ الجائعين المجوَّعين أنفسهم، مَنْ يقاتله ليقتله. فلماذا نسي «الأعرابُ» أقوالَ المؤمنين؟ لماذا؟

وهذا الحصار.. كيف أعيش، أنا الكاتبَ، تحت سمائه الثقيلة؟

سأُجيب عن هذا السؤال بشيء من البساطة، وبمزيدٍ العفوية والمباشرة، فأقول: إنني ما أزال أكتب. لا يمرّ يومٌ دون أن أكتب، ولو سطراً واحداً.. فأنا أجد في فعل الكتابة هذا تفعيلاً لحياتي، وشهادةً أقدّمها لمن تَعْنيهم حياتي بأنني ما أزال قادراً على الحياة. ولكي أجعل الحياة من حولي غيرَ ساكنة، فإنني دائمُ التحريض لزملائي من الكتّاب والشعراء على أن يكتبوا. وقد اكتشفنا، جميعاً، أنّ الكتابة هي المقوِّمُ الأساسُ لحياتنا، وهي فعلنا الكبيرُ في مقاومة الموت والحصار.

لم تعد الكتابةُ مهنتي، بل أضحتْ وسيلتي في مقاومة رؤيا الفناء وحالةِ الانحسارِ الإنسانيّ الذي نتعرض له. وحين أُصادِف مَنْ أعرفُ في لقاءٍ عابرٍ، فيستعيد معي مضمونَ مقالٍ نشرتُه، أو يسألني عن كتابٍ جديد، وعن كاتبٍ بلغه خبرُ رحيله، أعود سعيداً إلى بيتي، لأنّ هناك مَنْ لا يزال يُعنى بالكلمة، وتعنيه الكلمة، ويستجيب للكلمة.. وأقول: إذاً، نحن لا نُطْلق أصواتَنا في أعماق بئرٍ، ولا ننفخ في رماد... وأقول أيضاً: مايزال لنا دورُنا في الحياة، وهناك أيضاً مسؤوليتنا التي يطيب لي، في عديد الحالات والمواقف، أن أدعوها «مسؤوليةً تاريخيةً».

إنّني لأجدُ نفسي واقفاً مع سارتر وهو يرى «أنّ الثقافة لا تُنقذ شيئاً ولا شخصاً»، خصوصاً حين أتأمّل في ما يَحصل في محيطي الإنسانيّ من تآكلٍ في الحياة والأشياء، حتى ما كان منها، إلى الأمس، قريباً منّا أو خاصّاً بنا، أو حين أُحصي أعدادَ الموتى كلّ يوم: بسرطان الدم، أو السكتة القلبية، أو لعدم وجودِ العلاج المطلوب، أو بسبب سوء التغذية، وبينهم عدد غير قليل من الكتّاب والشعراء وأساتذة الجامعة. ومع هذا كلّه، فإنّني لا أُهوِّنُ من شأن الثقافة.. فهي «نتاج الإنسان: إنه يعكس نفسه عليها، ويُعرِّفُ نفسَه بها. إنّ هذه المرآة الناقدة هي وحدَها التي تقدِّمُ له صورته».

ـ ٤ ـ

الناسُ، في محيطنا العراقيّ، تقاوم بحياتها كي لا تسقط في العدم. وأنا، كاتباً وسيلتي الكلمةُ، أُقاوم بالكتابة كي لا أسقط في العدمية. وعلى الرغم من أنّ زمننا هذا الذي نعيش زمنٌ يساعد على السقوط في الحالتيْن، أي في العدم والعدمية، فإننا ـ إنسانَ الحياة، والإنسانَ الكاتبَ ـ مانزال نقاوم. وفي مقاومتنا هذه لا ننظر إلى الذين «فرّوا» وتركونا وحدنا نظرةَ ازدراءٍ أو إدانة، بل نقول: ﴿لا يكلِّف اللّهُ نفساً إلاّ وسْعَها﴾... وبيننا أيام نتداولها، سيكون منها/ولها تاريخٌ يظلّ على قيد الحياة، حتى بعد موتنا.

ومع كل ما حصل، ومع كل ما يحصل، فإنّ أحلامنا لم تغادرنا، ونحن لا نَتْبع سواها. ولما كانت أحلامُنا هذه طالعةً من هذه الأرض، فإنها ستظلّ متمسكةً بهذه الأرض، لأنّ جذورها/جذرنا فيها.

ونحن لسنا، في هذا، أُسطورةَ عصر، بل قوّةُ ذاتٍ، وقد استقرّتْ هذه القوّةُ في القلب منّا. ونحن، كتّاباً وشعراء وفنانين، نهرّب معاني هذه القوّة خارج أسوار الحصار لتسمع الإنسانيةُ (إنْ بقيتْ) أصواتَنا، ولنحدّد موقعنا على هذه الأرض. لذلك لم تعد الكتابةُ عندنا التماساً من الموت أن يُمهلنا أياماً أُخرى من الحياة نحياها كيف ما تكون.. بل هي انتزاعٌ لهذه الحياة من بين فكّيْ هذا الحصار الذي يعمل على أن يجعل حياتَنا محكومةً بالصدفة، لا حياةً قائمةً على الاختيار. ولذلك فنحن في ما نكتب اليوم نَهْتكُ أسرارَ سكوت «الكائنات الأخرى»، أو انصرافَها عمّا قد يكدّر صفوَ كلماتها ـ التي تطالبهم «المطبوعاتُ الممولةُ» من النفط، والخاضعةُ للتوجيه الأمريكيّ، أن تكون

«كلماتٍ نظيفةً»، أي غيرَ «ملوّثةٍ» بشيءٍ من همـوم هذا الواقع ومـعاناة الإنسان فيه.

ـ ٥ ـ

هل هذه الإنسانية نائمة؟

بل هي راكدة، وملوّثة. ولمّا كانت لا تفكر بمصير الإنسان الذي يواجهُ حالةَ إبادةٍ مستمرة، فإنّنا هنا لا يُفيدنا ما تقولُ به وتفكّر. وفي هذا نحن لا نتعـجل الحكم؛ ذلك أنّ حصار تسـعة أعوام، وستزيد، كافٍ لإيقاظ الموتى في قبورهم:

ـ فـهناك أطفـال يصـرخـون من الجـوع ومن آلامٍ لم يعرفها الأطفالُ قبلهم.

ـ وهناك أُمـهاتٌ ينتحبْن أمام أطفالهنّ وهنّ لا يجـــدن الحليبَ ولا الدواء اللازميْن لإنقاذ حياتهم.

ـ وهناك شبـابٌ مـا إنْ يتسلمـهم ليلُ أيامهم حتى يتعالى الأنينُ من أعماقهم وقـد حلّ فـيهـا التـعبُ والإجـهـادُ وألمُ المعاناة.

ـ وهناك شيوخ وعجائز ينامون ليلَهم ويتـوسّدون نـهارَهـم شـديدي الحـزن على سنواتِ عمرٍ نذروه للمـستـقبل، وبثّـوا أضـــواءه يومـــاً في نفـــوس أبنائهم.. وهم شديدو الخوف على تلك الأضواء أن تنطفئ.

ـ ٦ ـ

من هنا لا يستطيع الواحدُ منّا أن يكتب شـيـئـاً ذاتيـاً مـحـضـاً، ولا يستطيع الاستسلام لما ندعوه: نسياناً. ولذلك نجد الكاتب منا، حتى حين يكتب في قضيةٍ شديدة الخصوصية، ينغمر بعد الأسطر الأولى في هذا الجـمـع البـشـريّ الذي يجعل أضواءَ الحياة لا تنطفئ في عينيه.

إنّه حاضر يسلبنا أجملَ ما في الحياة: السـعـادةَ، ويصـادر الفـرحَ من نفـوسنا. ولكنه يثرينا تجـربةً، ويعلّمنا كيف ننتزع الحياةَ من أنياب العدم، وكيف نستخدم ذخائر نفوسنا وأرواحنا، وكيف نتعامل مع الموت بإرادة الحياة فينا.

هكذا ندسّ الحـيـاة داخل نفـوسنا.. ونجعل استـعدادنا يتفتح لاستقبال يوم آخر.

فكيف سيكون؟ □